التغير اللغوي والتغير الاجتماعي.وأثره في العلوم الإنسانية

– الأستاذ الدكتور الأخضر شريط،

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة الجزائر.

يهدف هذا البحث إلى إبراز مفهوم كل من التغير اللغوي[1] ومفهوم التغير الاجتماعي[2] والعلاقة التي تتم بينهما.

فلما كانت اللغة وسيلة اتصال في المجتمع فهي بذلك تساهم في نقل الأفكار إلى هذا المجتمع : تساهم في نقل ما هو ثقافي أي تساهم في نقل العادات والتقاليد والفن والدين والعلم وفلسفة المجتمع:

أولا من جيل إلى جيل اجتماعي آخر. وهي بذلك تغير من ملامح المجتمع الحضارية. لكنها لا تقوم بهذا العمل إلا وفق ما يعرف بالتغير الاجتماعي. والذي يعني في ما يعني الدفع بالآليات الاجتماعية إلى التطور. عوض الإبقاء بهذه الآليات جامدة وساكنة: لأن المجتمع الساكن هو المجتمع الذي هو فاقد لعوامل النمو فيه[3]: نعني بذلك "الميكانيزمات" التي تعمل على تحركه. ومن هنا فإن اللغة لها دور آخر هو أنها تلعب دورا أيضا ميكانيزميا: فباللغة يتم التغير الاجتماعي. لأنه – كما يقال – فالمجتمع يسمع إلى صوت ضمير الفكرة التي تحركه[4]. وهذا لا يتم إلا من خلال اللغة. ومن جهة أخرى فإن معامل

التغير الاجتماعي هو الآخر يفعل فعله في هذه اللغة نفسها، وذلك بالعمل على ترقيتها، وهذا هو العمل الإيجابي له. ويعمل على "تقعيدها". وهذا العمل السلبي للتغير الاجتماعي. فإذا كانت اللغة هي التي تسير المجتمعات من أجيال إلى أجيال. من جهة، وتسير المجتمع الواحد من درجة رقي إلى درجة رقي أخرى من جهة ثانية . فما هي الآليات الاجتماعية التي تتحكم في هذا؟

تلك هي الإشكالية التي نود معالجتها في هذا البحث.وللإجابة عليها سوف نتبع المنهجية التالية:

أولا نحدد مفهومي كل من اللغة –كوسيلة اتصال– ومفهوم التغير الاجتماعي كميكانيزمات تتسم بالتفاعل لنقف على العلاقة التي تربط بينهما: وفيها نتقصى ونتفحص هذه العلاقة وذلك بالوقوف على أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بينهما لنرسو على أهم وجه تركيبي فيها ونخلص إلى نتائج.

وللقيام بهذا العمل سوف نستعين بأهم المصادر وأهم المراجع التي تخدم الموضوع أي موضوع البحث. وسوف نتخذ منها مرشدا لنا دون أن نكون عبيدا لها. بمعنى أننا سوف نتدخل بالتحليل والنقد والتمحيص في كل ما اقتضى الأمر ذلك.

أولا في دلالة المتغيرات الإجتماعيـة[5] " Les Variables Sociaux "

1/– المتغيرات Les Variables :

يقول جاكوبسون: كل متغير (في اللغة) هو مرشح للتغير وكل متغير يمر أولا وقبل كل شيء بمراحل تغير غير أن كل تغير لا يعتمد على التغيير ومنه :

- فالمتغير يمكنه أن يزول.
- كما أن المتغير يمكنه أن يثبت والمثال على ذلك النفي في اللغة الفرنسية [6] »

إن البحث عن أسباب ظهور ظاهرة اجتماعية هو لمن صميم البحث السوسيولوجي؛ ولما كان هذا البحث يطرق دائما هذه العلل، فإنه هو الآخر يطرق الوضعيات " Situations "[7] أو الحالات التي تتكون فيها الظاهرة، وتتحول إلى وضعية أو حالة. ومن هنا فإن هذا التغيير لهو الآخر من صميم البحوث السوسيولوجية.

فظاهرة الحرب مثلا هي في الأساس الأول ظاهرة " ساكنة " نسميها ظاهرة السلام أو الأمن. وطرأ عليها تحول أو تغير، فأصبحت مشكلة مثلا لظاهرة أخرى نسميها أو نطلق عليها ظاهرة الحرب.[8]

وقد يحصل أن تكون مثلا أيضا ظاهرة الطلاق هي الأخرى ناتجة عن حالة " قلة " نسبة الطلاق، وكذلك الحال مثلا فإن الجريمة هي تغير من الأمان والطمأنينة وهكذا.

كما أن التغير الاجتماعي يخضع لمجموع عوامل أخرى نذكر منها المعامل الاقتصادي والمعامل الطبيعي والمعامل الثقافي أي الديني[9] . وإذا أردنا تدقيقا أكثر لهذه العوامل الثلاث فإننا نقول أن المجتمع يطرأ عليه تغيير من المعامل الاقتصادي ذلك أن عامل الفاقة والفقر يدفعان بالمجتمع نحو تجديد عوامل بقائه. ومنه فإن المجتمع سوف يتغير سلبا أو إيجابا

سلبا بمعنى من الممكن جدا أن يتقوقع على نفسه حتى يعرف معد مرور زمن معين حالة القهقري أو المجتمع المنحدر تاريخيا. ومن الممكن أن يتغير إيجابا وفي هذه الحالة يكون للعامل الذي ذكرنا سببا في تحركه نحو التقدم وهي الحالة التي تحدث بفعل عوامل أخرى تؤثر في المجتمع وعليه ففي كل حال فإن المعامل الاقتصادي قد يتسبب في التغير الاجتماعي كما ذكرنا .

وأن المعامل الطبيعي، هو الآخر قد يحث هزات اجتماعية. من ذلك حالات حدوث زلازل أو براكين، في الواقع الطبيعي لمجتمع ما. وهو الشيء الذي يتسبب في حدوث نزوح من الريف إلى المدينة، أو من المدينة نحو الريف[10]. وذلك حسب المنطقة التي تصاب بهذه الكوارث الاجتماعية. وفي كلا الحالتين. فإن المجتمع يطرأ عليه تغيير. لكن هذه المرة في ناحية علاقاته الاجتماعية. وفي ناحية عدده الاجتماعي من ناحية الكم، ومن ناحية الكيف. يطرأ تغير اجتماعي على علاقاته الاجتماعية، كأن يكون النزوح من الريف إلى المدينة، بفعل العامل الذي ذكرنا، مسبب لخلق وإيجاد علاقات اجتماعية جديدة. أو كأن يتسبب في عدم خلق علاقات اجتماعية جديدة. وفي كلتا الحالتين، فإن المجتمع سوف يعرف تغييرا اجتماعيا.

و الأمثلة على هذا كثيرة. ففي البلاد التي تكثر بها الكوارث الطبيعية يلاحظ هذا. ولعل أحسن مثال في ذلك حالات المجتمع الياباني المتجدد العلاقات الاجتماعية.

كما أن الملاحظ أيضا أن زلزال 21ماي 2001 الذي ضرب بومرداس الجزائرية، عرف هو الآخر على إثره، المجتمع الجزائري تغيرا كبيرا في هذا المجال. أي في مجالات علاقات هذا المجتمع. فلاحظنا كيف أن عائلات بأكملها هجرت المنطقة، واستوطنت في مناطق قريبة أو بعيدة من منبتها الأول. وعلى هذا الأساس فمن الممكن جدا أن تكون الكوارث الطبيعية تلعب دورا إيجابيا في الجانب الاجتماعي هذا. هو ما تقدمه من تغير يطرأ على هذا المستوى.

نقول هذا دون أن نتنكر للجانب السلبي، الذي يصاب به أي مجتمع من المجتمعات، قد يطرأ عليه أو قد يصاب بهذا النوع من الحالات.

وأما عن المعامل الثقافي، الذي يجعل المجتمع وأي مجتمع في حالة التغير هذه.فإن الفعل الثقافي كما هو معروف –مثلا دينيا– يمكنه أن يكون أكثر من غيره من العوامل التي تتسبب في حالة التغير الاجتماعي هذه. ذلك أن الدين كان دوما من المؤثرات القوية على حالة المجتمع، سواء من الناحية الايجابية، أو من الناحية السلبية.

فنحن نعلم مثلا في التاريخ أن المعامل الديني جعل المسيحية تمارس الهجرة نحو الشعوب الجرمانية، بعد الزحم الحياتي، الذي أصيبت به من أفكار غير مسيحية، مع القرون الوسطى. وهو الشيء المعروف الذي أحدث تغيرا هائلا في البنية الاجتماعية للشعوب هذه، مع بدايات ما يعرف بعصر النهضة الأوروبي.

كما أن المعامل الثقافي هذا أيضا. والدين على الخصوص منه، قد بعث المجتمع العربي بل ودفع به نحو التغير منذ فجر غار حراء بمكة المكرمة. فلاحظنا ذاك التغير الذي أصيب به المجتمع العربي، الذي تحول من مجتمع قبلي، إلى مجتمع بنا دولته الأولى في المدينة. بل وبنا دولته مع الأمويين، ومع العباسيين، ومع الفاطميين، ومع الزيانيين والسعديين و الموحدين والعثمانيين ...

كما أن المجتمع نفسه اليوم مصاب بحراك بع التغير الذي أصيب بع بفعل المعامل الاستعماري، والذي هو هنا أيضا معامل ثقافي بالمعنى السياسي هذه المرة. وليس بالمعنى الديني لأن الاستعمار من الممكن جدا أن يكون عنصرا أو عاملا، قد أحث تغيرا ما، على الشعوب العربية، ولكنه من الناحية القيمية هو تغير سلبي. لأن المجتمع العربي لم يعرف طوال تاريخه الطويل تخلفا كما عرفه مع هذا الطارئ التاريخي هذا، الذي حل به مع القرن التاسع عشر. وإلا كيف نفسر التقدم الذي تم في أوربا، إن لم يكن على حساب شعوب البلاد العربية في المجال الاجتماعي؟

وعليه فإن الظاهرة الاستعمارية يمكن اعتبارها طارئا تاريخيا. ولكن مع ذلك كان لها وقعات في التغير الاجتماعي، لكن هذه المرة بالسكونية والستاتيكية. إذ أن هذا المعامل ونتيجة لكونه قد عمر طويلا بهذه البلاد. أي البلاد العربية(الاحتلال الفرنسي للجزائر دام أكثر من 130سنة الاحتلال الفرنسي لتونس أكثر من 70سنة. الاحتلال الايطالي لليبيا دام أكثر من50سنة و...وهلم بلاد المشرق العربي تكاد تقترب من هذه الأرقام التي ذكرنا .

ومن هنا بات معامل الاستعمار هنا بمثابة الكبح الذي أثر وسيؤثر في مسيرة التغير الاجتماعي للشعوب العربية، –مع الأسف– من الناحية القيمية، هو تأثير سلبي. لأن المجتمع العربي بات ومنذ وطئت أقدام الاستعمار أراضيه، يئن تحت رحمة التغير نحو الخلف، وليس نحو الأمام. إذ أن الأمام والتغير الايجابي هذا، قد انتزع منه انتزاعا.

لذلك فإن التاريخ السوسيولوجي للبلاد العربية سوف يرسم دائما وأبدا منعرجا خطيرا في مسيرة تطوره مع فترة الظاهرة الاستعمارية أي ابتداء من الربع الأول من القرن التاسع عشر، وانتهاء بالثلث الأخير من القرن العشرين. وهي فترة إذا ما قسناها من الناحية الحضارية.حوالي 5 أجيال.

وعليه فإنه في كل هذه الحالات، تغير، ولذلك نقول عنه إنه انحراف. ويقال للظاهرة متغيرا " Variable ".

ففي الجزائر مثلا كانت نسبة الطلاق قبل " المأساة الوطنية " منخفضة، مقارنة بنسبتها أثناء هذه الظاهرة، السبب هو أن الحركية الاجتماعية، فرضت نوعا أو أنواعا من التحولات الاجتماعية، أو نوعا من الأنواع التي نطلق عليها بالتغيرات الاجتماعية. (وتعليل الظاهرة السالفة الذكر لا يرجع إلى عامل التغير الاجتماعي، وحده وإنما يعود إلى عامل أو عوامل مجتمعية تساهم بقسط أو بآخر في نسبة الزيادة التي أشرنا إليها أو في انخفاضها).

وبناءا على هذا يمكن القول أن ظاهرة الطلاق تتأثر بالتغيرات الاجتماعية.

والمثال الثاني الذي سوف نثبت به هذا المعطى إنما يتمثل في ظاهرة أخرى هي ظاهرة الجريمة، فإن انتشار هذه الأخيرة أو تقلصها هو رهن الوضع الذي سبق هذه الظاهرة، فإذا كان الوضع أو الحالة الاجتماعية ممثلة بظاهرة الفقر؛ فإن هذه الأخيرة باعث على ظاهرة أخرى سميناها هذه المرة بظاهرة الجريمة، وخلاصة القول أن التغير الاجتماعي إنما يتم من الوقوف على أسباب ظواهر متتالية، من ظاهرة كما قلنا الحرب أو ظاهرة الطلاق أو ظاهرة الجريمة.

والظاهرة المقصودة بالشرح هنا هي الظاهرة التي يقال لها المتغير المستقل " Variable Indépendant " لأن هذا المتغير المستقل تسبب في المتغير الآخر أو في المتغيرات الأخرى.

وهكذا مثلا نجد أن نسبة الطلاق بعد المأساة الوطنية تسببت عن زيجات متسرعة، وانفعالات ترتبت عن ظروفها. ومن المعلوم أن الطلاق يزداد إبان الإنعاش. ويقل إبان الكساد، فالتغير في متغير واحد يمكن أن يفسر بالإضافة إلى تغير في متغير آخر. وعليه فإن دراسة أسباب ظاهرة هو في الحصيلة دراسة لأسباب ظاهرة أخرى، وبذلك نكون قد وقفنا على العلاقة بين متغيرين أو أكثر، والوقوف على العلاقة يقتضي هو الآخر تحليلا للعلل. وللأسباب التي ساهمت في إرساء هذه العلاقة.

2/- الساكن أو الثابت " Le Constant " ليس سببا للتغير:[11]

إذا أردنا أن نفسر ظاهرة في ضوء ظاهرة أخرى، فإن النتيجة هي أن ظاهرة ما لا يمكن أن تفسرها ظاهرة بالإضافة، والثابت هو العامل الذي لا يتغير. ومع أن الثابت لا يمكن أن يكون سببا في تغير فقد يكون مع ذلك عاملا في التغير. وإذا أردنا تفصيلا أكثر نقول أن غريزة العدوان والمقاتلة ليست سبابا في نشوب الحرب، بمعنى أن العامل البيولوجي هذا ثابت. ولأن هذه الغريزة كانت موجودة في الناس إبان حالات الآمان والسلام، وهي موجودة بنفس الدرجة التي كانت موجودة بها أثناء " المأساة الوطنية ". ومع ذلك فإن هذا العامل البيولوجي يعتبر راسب المأساة الوطنية. لأنه إذا لم يكن موجودا، فلربما تكون هناك هذه " المأساة الوطنية ". –وحسب أغبرن Ogbern– فالظاهرة يكون لها عدد كبير من العوامل الدائمة وفي الوقت نفسه يكون كل تغير في الظاهرة نتيجة لعوامل عليه أقل. [12]

3/– أسباب عديدة للظواهر الإجتماعية :

عندما نقف بالدراسة على سبب من الأسباب لظاهرة اجتماعية. هذا لا يعني بأن هذه الأخيرة ناتجة عن سبب واحد ووحيد. بل هناك جملة هائلة من الأسباب. والاختلاف هنا، ليس حول الواحد أو الكثرة، وإنما هو عن أي هذه الأسباب أهم من الآخر. والملاحظ **أن السوسيولوجي هو الذي يتمكن من ترتيب الأسباب لدراسة ظاهرة اجتماعية ترتيبا هرميا.** فقد يكون سبب الهجرة هو العوز الاقتصادي، وقد يكون سببها هو الاضطهاد السياسي، وقد يكون الترف، فكم من مترف دفعته أمواله إلى الهجرة ، وقد يكون حب العزلة: فكم من

معزول اجتماعيا كان قد هاجر من وإلى و ...الخ . إذا هناك جملة هائلة من الأسباب تكون دائما مرافقة أو متسببة في ظاهرة ما –كما أسلفنا– ولكن أيضا دائما يتصدر هذه الأسباب سبب رئيس، أو ما أطلقنا عليه بالسبب الأهم والذي يأتي على قمة هرم الأسباب.

4/– سلسلة الأسباب :

عندما نبحث في سبب من الأسباب[13] يكون قد أدى إلى ظهور ظاهرة اجتماعية ما، فإننا لا نركز على السبب تركيزا صرفا. لأن هذا السبب قد يكون له سبب مصاحب . وهو الذي نقول عنه أنه سلسلة. فمثلا إذا لاحظنا أن سبب النزوح الريفي إلى المدن هو العامل الاقتصادي. فإن هذا السبب لا يقوم وحده، وإنما تصاحبه سلسلة من الأسباب. وليكن هذه المرة العامل الاجتماعي نفسه بمعنى أن النزوح الريفي كان تحت وطأة العامل الاقتصادي إذا أن أفراده مارسوا الحكاية من فعل العوز المادي، ولكنهم في الآن نفسه مارسوا الحكاية من فعل العوز الاجتماعي. بمعنى أن فعل عامل القرابة قد يكون مصاحبا للسبب الرئيس، كما أنه قد يكون الرغبة في العيش الرغد هو الآخر عامل مصاحب، وهكذا نجد أن التغير الاجتماعي إنما يحصل بسلسلة أسباب أو تحت طائلة سلسلة أسباب.

ولا يعني التغير المصاحب ضرورة ارتباط المتغيرين نسبيا أو كليا لأن هذين المتغيرين قد يكونان مستقلان أحدهما عن الآخر.

كما يرجع التغير المصاحب إلى عوامل أخرى، قد تكون كما أسفلنا عوامل اجتماعية أخرى، أو حتى اقتصادية أو ...".

ثانيا التغيـر اللغـوي

أولا تعريف التغير اللغوي: يمكن القول أن التغير هم أعم أشكال الوجود، لجميع الأشياء والظواهر، ويشمل التغير كل حركة وتفاعل، كما يشمل الانتقال من حالة إلى أخرى، والتغير عامة هو نقيض الاستقرار.[14] وعموما يمكن القول أن التغير اللغوي هو انتقال لغة من وضع إلى وضع آخر يختلف نسبيا وجذريا مع ما هي عليه في الحالة الأولـى.

والتغير اللغوي يحتكم إلى قوانين سوسيولوجية، وهي عينها التي تتحكم في المسيرة الاجتماعية للمجتمع وأهم هذه القوانين.

– **قانون التنشئة الاجتماعية والتنشئة الفردية هما جانبا عملية واحدة:** هذا القانون الذي وضعه ماكيفر، في ما يحدث كقانون أساسي للنمو الجماعي، نرى بأنه ينطبق أيضا على التغير اللغوي؛ حيث أن فعل التنشئة اللغوية إنما يتم من جانبين أو من شقين: هما الجانب الفردي والجانب المجتمعي، والمقصود بالجانب الأول أي الجانب الفردي؛ أن عملية التنشئة اللغوية تتم طبقا لمتابعات فردية، مع ما يحدث من نحت اجتماعي لألفاظ المجتمع على الفرد. بمعنى أن هناك عملية متبادلة ضمنيا بين الشق الأول وهو " العطاء اللغوي " والشق الثاني وهو "الأخذ اللغوي". وما يهمنا هو الثاني، حيث أن العملية إنما تتم وفق تطابق من جهة، ووفق انسجام واتساق وروح الجماعة من جهة أخرى . كما أن هذه الأخيرة تفعل فعلها على ذاتية الفرد أو في الجانب الاجتماعي للفردانية.

وأما "العطاء اللغوي" فإنه لا يتم إلا من الذات المجتمعية التي تكسب هي الأخرى جملة من الألفاظ، لترمي بها على " الاجتماعية الفردية " للأشخاص وهكذا تنشأ بفعل ذلك عملية أخرى يمكننا أن نطلق عليها بـ "التناقل اللغوي" الذي هو الآخر وريث التفاعل الاجتماعي.

وبالجملة نقول أننا يمكننا أن نجد في التغير اللغوي ترجمة للقانون الذي صيغته الآتية : " الفردية والاجتماعية تنمو جنبا إلى جنب على قدر سواء ". [15]

فالتغير اللغوي تتحكم فيه أيضا قوانين التاريخ. "وقامت مدرسة اللغويين الأمريكية وفي مقدمتها "بلومفيلد" و"ادوارد سابير". فقد ميز "بلومفيلد" بين دراسة اللغة من الناحية التاريخية وبين دراستها من حيث هي مستقرة، وكون نظرية بنائية في اللغة قائمة على معرفة واسعة بالحقائق اللغوية . و" بلومفيلد" من أصحاب نظرية السلوك الذين ينكرون كل عملية ذهنية، ويذهبون إلي أنه لا يمكن ملاحظة شيء من هذا القبيل ملاحظة موضوعية، ويتجاهلون نتائج البحوث النفسية والطبية الهامة التي ثبتت أمام الاختبار، وهم يتخلصون من المعني على قدر الإمكان وهو يري أن معني أية صورة من الصور اللغوية هو الحالة التي ينطق بها المتكلم بهذه الصورة، والأثر الذي يحدثه في السامع.

وهكذا بدأ "بلومفيلد" من الصور اللغوية لا من معاني الصور، وكون على أساس مقاييس صورية خالصة، نظاماً كاملاً من الوحدات الصوتية ومن تحولاتها، ومن الصلات العامة

والصور النحوية والصرف وأنواع الجمل . وتتبين فائدة هذا المنهج عند دراسة لغة تختلف عن لغة الباحث، وفي دراسة البناء اللغوي .

ولكنه لا يصلح حين يطبق على التطور التاريخي، فالتغير اللغوي يبدأ في فرد . أو في طائفة قليلة العدد، ثم يعمم في الجماعة ."[16]

لما كان المجتمع هو مجتمعان؛ ما يعرف بالمجتمع الطبيعي والمجتمع التاريخي[17] فمن دون شك أن الأول يمتثل للقانون السالف الذكر والذي هو أن التنشئة الإجتماعية والتنشئة الفردية هما جانبا عملية واحدة.

أما الثاني أي المجتمع التاريخي، فهو المجتمع الذي تحدث به تغيرات على المستوى الثقافي لاسيما منه اللغوي، باعتبار أن اللغة هي أيضا تتأثر بالآلية التي يتم بها انتقال الأفكار من حالة إلى حالة، ومنه فاللغة هي الأخرى تتحكم بها هذه الآلية التي تتم فيها من وضع لغوي إلى وضع لغوي آخر.

ولعل أحسن الأمثة لهذا المقام هو :

عندما نقارن بين النموذجين الاجتماعيين واللذان هما على سبيل المثال: مجتمع شعوب الإسكيمو، والمجتمع الكندي. أو ما بين مجتمع قبائل أدغال إفريقية ومجتمع شمال إفريقيا نلاحظ على المستوى اللغوي الملاحظات التالية :

أولا أن لغة (ألفاظ) مجتمع الأسكيمو أو بعض قبائل أدغال إفريقيا محدودة[18] لأنها محصورة بالنظام المعيشي المغلق الدائرة الذي تعايشه هذه الشعوب، ولكن من ألفاظها سمك، كلب، .....، كوخ، مركب ... جلد ".

وثانيا أن لغة المجتمع الكندي تتسع لأكثر من ما تتسع له المعاجم المعاصره، والتي من أهمها معجم لاروس الفرنسي أو المعجم الإنجليزي أو غيره، مما يدل دلالة قاطعة أن اللغة هنا باتت في اتساع وفي تطور بل وفي تغير مستمر من المحدود إلى اللامحدود.

وهو الشيء نفسه الذي يمكنه أن ينطبق على المثال الثاني مع الأخذ في الحسبان نسبة الزيادة أو النقصان. في الحالتين أي حالة لغة مجتمع قبائل إفريقية. وفي حالة مجتمع شمال إفريقيا بالمثال الأول.

إن التغير اللغوي تتحكم فيه أيضا مجموعة من العوامل تأتي في مقدمة هذه العوامل العامل الثقافي والعامل الاقتصادي وكذا العامل النفسي:

فبخصوص العامل الثقافي نلاحظ أن الشعوب التي اعتمدت المدرسة الحديثة يبدوا قاموسها اللغوي أغنى من الشعوب التي بقيت حبيسة المدرسة التقليدية ذلك في نظرنا مما تصاب به هذه الأخيرة من استاتيكية[19] في استعمالها للمفردات التي تتداولها على غرار الشعوب أو المجتمع الذي اختار المدرسة الحديثة، فإن عامل الاحتكاك اللغوي بين اللغات، سوف يلعب دورا حاسما في ثراء قاموسه اللغوي هذا.

كما أن لعنصر التفاعل اللغوي بين في داخل اللغة الواحدة له ما يبرره من الناحية الواقعية. فالمدرسة الحديثة، ولما كانت تستخدم في تدريسها أثر من لغة معنى هذا أنها تحتك بزخم هائل من النصوص المختلفة التي تنسل إليها من خلال هذه النصوص.

ومنه فالثراء اللغوي يكون واضحا هنا. وعليه فمن الثراء اللغوي يحدث أيضا التغير اللغوي. والعكس صحيح أي من الفقر اللغوي، فإنه لا يحدث تغير لغويا إطلاقا. إذ أن حالة الفقر اللغوي تبقي اللغة وأي كانت في استايكية. ولنا الأمثلة الكثيرة في هذا المجال. إن الإنسان المثقف غالبا ما يحدث لديه هذا الثراء اللغوي الشيء الذي سيساعده على حل مشكلاته الخاصة بسرعة، وبجهد أقل. لماذا؟ لأن العلاقات اللغوية تتم له مع غيره بسرعة، وبكل أريحية.

على غرار هذا فإن الإنسان الذي هو من الأمية بمكان، لا يستطيع أولا أن يتوصل إلى حلول للمشكلات، لا في أسرع وقت. ولا في أقصر جهد. لأن قاموسه اللغوي غالبا ما يقع حائلا بينه وبين قضاء مآربه، وحل للمشكلات التي تعترضه.

التغير اللغوي والتاريخ : إن مسألة التغير اللغوي مسألة موغلة في القدم بل من الممكن القول أنها تعود إلى العهود الأولى التي تم فيها استعمال اللغة بل اللغات – مع العلم أن الاستعمال الأول للغات ضل يتأرجح بين النظرتين : النظرة الميتافيزيقية والنظرة

المواضعاتية–ومن هنا فإن: "تقدم تلك اللغات الحديثة المعطيات التي ينشئ علماء اللسانيات على أساسها استنتاجاتهم. انه ومن خلال دراسة توزيع الأشكال اللغوية الحديثة يكون بمقدور عالم اللسانيات إعادة بناء بعض السمات الخاصة بلغات الماضي التي اشتقت منها اللغات الحديثة، وان يقترح المناطق التي تم التحدث فيها بتلك اللغات السلف. المفردات المعروفة عن تلك اللغات السلف يمكنها أن تقول لنا شيئاً عن أنماط حياة المتحدثين بها وعن الأشياء التي اعتادوا عليها. تنتقل الكلمات، نتيجة الاتصال الناشئ بين الشعوب، من لغة إلى لغات مجاورة. تلك الكلمات المنتقلة يمكن تتبعها هي الأخرى. عن طريق مثل تلك الدراسات يصبح ممكناً إعادة تركيب ما قبل التاريخ اللساني لأفريقيا–مثلا– بصورة متماسكة.

ليست لدينا، بالطبع، معلومة محددة عن السرعات المتفاوتة التي تسير بها عملية التغير اللغوي. فقط في حالة اللغات ذات التاريخ المكتوب الطويل يكون من الممكن حساب تلك السرعة بدقة. علم اللسانيات بمفرده يمكنه أن يقدم فقط ترتيب نسبي للعمليات

والأحداث إلى جانب تقديم مبدئي للغاية للامتدادات الزمنية. لا بدَّ من النظر بقدر من الاحتراس للصيغ الزردمة كرونولوجية (وهي طريقة لحساب الأعمار التي وقعت فيها تطورات لغوية)، بخاصة لدى تطبيقها في محتويات غير كتابية طالما أن تلك الصيغ تفترض أن التغير اللغوي يحدث بنسبة متسقة. على كل فانه حين تكون هناك روابط بين التواترات المستقلة القائمة أساساً على علم الآثار وعلم اللسانيات فان كرونولوجية اللسانيات يمكنها أن تقف على أرضية أكثر متانة. إن إعادة التركيب التاريخي القائمة على قاعدة الدراسات اللسانية يمكن أن تقدم دعماً محدداً للبينة الآثارية في المناطق التي لم تتعرض لأعمال تنقيب مكثفة، ولأن العديد من جوانب علاقات المجموعات المتداخلة التي تبرزها الدراسات اللسانية يصعب توضيحها على أساس البينة الآثارية. ترتبط مثل إعادة التركيب اللسانية تلك بالخمس أو ست آلاف سنة الأخيرة رغم أن محاولات أجريت لتطبيق تلك المناهج على مراحل مبكرة"[20].

لا يمكن لنا أن ننكر أن التغير اللغوي إنما حصل تدريجيا وهو لا يزال يحصل وسيضل كذلك لسبب الآلية التي تنتقل بها الأفكار من حالة تحضر مجتمع إلى حالة أخرى.

وهكذا تم وأن تطورت لغات بفعل ما حصل فيها من تغير، فإنجليزية وليام شكسبير من القرن 17 هي غير إنجليزية اليوم. فبخصوص ألفاظ هذه اللغة نقول أنها تتعرض للنحت التاريخي باستمرار، ولم يحصل هذا مع اللغة الإنجليزية وحسب، ولكن مع لغات العالم كلها.

حتى أن اللغة – سواء تلك التي قبلت النحت التاريخي وسايرته، أم تلك التي لم تقبل ذلك، ولم تسايره– هي عرضة لإحدى الاثنتين: إما أنها لغة متجاورة لهذه العملية أي عملية النحت التاريخي. أو أنها غير ذلك الشيء الذي يؤهلها للبوار والركود. وهو الشيء نفسه الذي حدث للغات الشعوب الآرية، أو اللغات التي أصبحت تشكل لهجات اتسمت بالمحلية والشوفينية.

وهناك لغات تسمى اليوم باللغات الحية، وهناك لغات تسمى باللغات الميتة. فالأولى: حية قياسا إلى مدى حكم القانون أي قانون المسايرة والعصر من جهة، ومن جهة أخرى قياسا أيضا إلى ما تحتوي من مضمون حضاري اجتماعي– تاريخي يؤهلها لذلك، والعكس صحيح.

وهكذا فالتغير اللغوي يمكنه في كثير من الأحيان أن يكون تابعا للتغير الاجتماعي المنسجم والقوانين السالفة الذكر. والتي أهمها:

– قانون التنشئة الاجتماعية والتنشئة الفردية هما جانبا عملية واحدة.

نتائج البحث:

– إن التغير الاجتماعي يحمل المتغير مقابل السكون والستاتيكا الاجتماعية وأن المتغير الاجتماعي تتحكم فيه مجموع القوانين الاجتماعية. كذا فإن هذا الأخير على علاقة متينة ليس بكم بل بنوع المجتمع الذي تسايره هذه الأجرومية من القوانين الاجتماعية.

– إن آليات التغير الاجتماعي يتحكم فيها المتغير الرئيس أو المتغير الأهم كما سميناه وهو الذي لا يقوم وحده بل هناك ما يعرف بالمتغير المصاحب كما أن هناك المتغير المستقل وهناك سلسلة أسباب من الممكن أن تتحكم في التغير الاجتماعي.

– يلاحظ أن المتغير الاجتماعي على علاقة بالمتغير اللغوي والعلاقة بينهما جد متينة. فكلما كان تغير اجتماعي كلما حدث تغير في عالمه اللغوي: فالمملكة اللغوية تخضع هي الأخرى لجملة التغيرات الاجتماعية.

– إن المتغير اللغوي وإن كان متغيرا عرضيا إلا أنه يؤثر في عالم المملكة اللغوية وذلك بطريقين:بطرقة ما سميناه بالعطاء اللغوي وما أطلقنا عليه بالأخذ اللغوي الشيء الذي يصطلح على تسميته بالتفاعل الثقافي أو هو شق من التفاعل الثقافي .

– يتأثر المتغير اللغوي بنوع اللغة فإن كانت من اللغة الأم فإن تأثره يكون بطيئا على عكس فيما لو كان نوع اللغة من اللغة المشتقة فإنه يبدي تغيرا سريعا.

– يتأثر المتغير اللغوي بعامل النحت التاريخي بحيث أن اللغة العتيقة لا تبدي أثرا على عكس اللغة المستجدة فهي تبدي تأثرا عاليا بالمتغير اللغوي.

– إن العلاقة التي تربط المتغير الاجتماعي بالمتغير اللغوي علاقة كمية وكيفية في الآن نفسه : فكلكما كان المجتمع يفرز تغيرات اجتماعية كثيرة كلما كان له إفراز على مستوى تغيره اللغوي من جهة ومن جهة أخرى كلما كان المجتمع ذا تغير عميق كلما كان للمتغير اللغوي أيضا تأثره بهذا المعامل والمثال على ذلك ما يحصل للمجتمعين الكندي ومجتمع قبائل الاسكيمو

هوامش البحث

[1]) يقول شارل بالي« اللغات تتغير ولا يمكن أن تؤدي وظيفتها إذا لم تتغير. » أنظر:
Charles Bally, Linguistique générale et linguistique française.Berne1958,.P18.

[2]) التغير الاجتماعي هو التغيرات التي تحدث في التنظيم الاجتماعي أي في بناء المجتمع ووظائف هذا البناء المتعددة، أنظر: عاطف غيث، علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية 1994.

[3]) أنظر بهذا الخصوص لتفاصيل أكثر. مالك بن نبي ميلاد مجتمع، فصل أوليات، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر ،دون تاريخ.ص7-12

[4]) المصدر نفسه ص 45.

[5] يقصد بالمتغيرات الاجتماعية مجموع ما يطرأ من تغير على الحالات التي تختفي لأنها عوارض فنحن نطلق على حالة انتقال الظاهرة الاجتماعية من وضع إلى وضع آخر بأن المتحكم في هذا هو المتغير الاجتماعي

[6]) أنظر في هذا :. Jakobson, Essais de linguistique générale1958/63. P37

[7]) يقصد بالحالة أو الوضعية موقف بين عتبتي التغير الاجتماعي.

[8]) محمد عاطف غيث علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1994 ص33

[9]) Linguistique historique et linguistique générale .Paris .champion, 1921 , Meillet,Antoine

[10]) ترييف المدينة أي جعل هذه الأخيرة تتميز بالطابع الريفي ولعل هذا الكلام ينطبق أكثر على البلدان التي توجد بها الظاهرة .

[11]) Jakobson, Essais de linguistique générale1958/63. P52.

[12]) Ogburn, 06 Nimkoff, A Hand book of Sociology, London 1960, p 7

[13]) يقصد بعلل الأسباب: السبب المباشر الذي يكون جوهري ،و المحرك الأساسي لتغير الظاهرة الاجتماعية وليس السبب الظاهري لتحول الظاهرة .

[14]) الموسوعة الفلسفية، إشراف م. روزنتال ت : سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، 1981، ص 135

[15]) ر.م، ما كيفر، الجماعة دراسة في علم الاجتماع، تر : محمد علي أبودرة، ولويس اسكندر، دار الفكر العربي، 1968، ص 266.

[16]) أنظر معتصم زكي السنوي، من نسق العلامات إلى نظام المعاني والبناء الصوري www0.jehat.com/ar/default.asp?action=article&ID=8149 - 72k

[17]) لتفاصيل أكثر أنظر في هذا المجال مالك بن نبي ميلاد مجتمع وشبكة العلاقات الاجتماعية .ص5.

[18]) لتفاصيل أكثر أنظر الدراسات التي قام بها كلود ليفيستراوس كتابه *Mythes* أو كتاب *Tristes Tropiques* على الشعوب المتخلفة من أجل الوصول إلى معايشة القبيلة كان عليه أن يعايشها وأن يتعلم لغتها وأن يتعلم تقاليدها وأن يتعلم كل ما هو من التقاليد ومن...

[19]) الحالة الستاتيكية أي حالة السكون الاجتماعي .

[20] أنظر - WWW.arkamani.org/bookreview_files/african_archaeology_1.htm

دفيد فيليبسون علم الآثار الإفريقي ترجمة أسامة عبد الرحمن النور، الجا للنشر مالطا 2001

مصادر ومراجع البحث:

1- محمد الجوهري وآخرون، التغير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية. 1995.

2- محمد عاطف غيث ،علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية .1994.

3- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، فصل أوليات، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر ،دون تاريخ.ص7-12

4-.الموسوعة الفلسفية، إشراف م. روزنتال ت : سمير كرم، دار الطليعة، بيروت،

5- ، ما كيفر، ر.م . الجماعة دراسة في علم الاجتماع، تر : محمد علي أبودرة، ولويس اسكندر، دار الفكر العربي، 1968

6- معتصم زكي السنوي، من نسق العلامات إلى نظام المعاني والبناء الصوري

7- دفيد فيليبسون علم الآثار الإفريقي ترجمة أسامة عبد الرحمن النور، الجا للنشر مالطا 2001.

8- مالك بن نبي ،ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية ،ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر بدون تاريخ.

9-www0.jehat.com/ar/default.asp?action=article&ID=8149 - 72k

10-www.arkamani.org/bookreview_files/african_archaeology_1.htm

11-Charles Bally, Linguistique générale et linguistique française.Berne1958

12- Jakobson, Essais de linguistique générale, 1958

Meillet,Antoine Linguistique historique et linguistique générale Librairie K linksieek .Paris .champion, 1921 -13

Jakobson, R « Le langage commun des linguistes et des anthropologues» in essais des linguistiques générales, édition de minuit .Paris.1963-14

Ogburn, 06 Nimkoff, A Hand book of Sociology, London 1960 -15

Moor.W.E. social change, Prentice Hell,NewJersey1963 ,-16

مصادر ومراجع البحث:

1- محمد الجوهري وآخرون، التغير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية. 1995.

2- محمد عاطف غيث ،علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية .1994.

3- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، فصل أوليات، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر ،دون تاريخ.ص7-12

4-.الموسوعة الفلسفية، إشراف م. روزنتال ت : سمير كرم، دار الطليعة، بيروت،

5- ، ما كيفر، ر.م . الجماعة دراسة في علم الاجتماع، تر : محمد علي أبودرة، ولويس اسكندر، دار الفكر العربي، 1968

6- معتصم زكي السنوي، من نسق العلامات إلى نظام المعاني والبناء الصوري

7- دفيد فيليبسون علم الآثار الإفريقي ترجمة أسامة عبد الرحمن النور، الجا للنشر مالطا 2001.

9- مالك بن نبي ،ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية ،ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر بدون تاريخ.

9-www0.jehat.com/ar/default.asp?action=article&ID=8149 - 72k

10-www.arkamani.org/bookreview_files/african_archaeology_1.htm

11-Charles Bally, Linguistique générale et linguistique française.Berne1958

12- Jakobson, Essais de linguistique générale, 1958

13- Meillet,Antoine Linguistique historique et linguistique générale Librairie K linksieek .Paris .champion, 1921

14- Jakobson, R « Le langage commun des linguistes et des anthropologues» in essais des linguistiques générales, édition de minuit .Paris.1963

15- Ogburn, 06 Nimkoff, A Hand book of Sociology, London 1960

16- Moor.W.E. social change, Prentice Hell,NewJersey1963 ,